

لسان وأذنان

1430/11/4هـ

عناصر الموضوع:

1. فضيلة الصمت وضبط اللسان.
2. آثار وأقوال في حفظ اللسان.
3. فضائل اللسان.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد ..

فضيلة الصمت وضبط اللسان

فإن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا السمع والأبصار والأفتدة والألسن كي نذكره ونشكره وحده لا شريك له، وأن نستعمل ما وهبنا من الأعضاء في طاعته تعالى، ومنها هذا اللسان، الذي هو أسرع الأعضاء حركةً، وقد قال الله سبحانه وتعالى: **{ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ }** (النساء: 114).

وقال عليه الصلاة والسلام: **{ (مَنْ صَمَتَ نَجَا) }** [رواه أحمد (6445) والترمذي (2501) وصححه الألباني في صحيح الجامع (6367)] أخرجه أحمد والترمذي ، وصححه الألباني.

وقال عقبة بن عامر رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله ما النَّجَاةُ ؟

قَالَ: **{ (أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ) }** [رواه الترمذي (2406) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (3331)]
أخرجه الترمذي وصححه الألباني.

وقال واعظاً أمته عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) [رواه البخاري (6018) ومسلم (47)].

وَقَالَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنْوَاحُ دُبِّ مَا تَقُولُ قَالَ : ((تَكَلِّمْنَا أُمَّكَ وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ)) [رواه الترمذي (2616) وصححه الألباني في الجامع الصغير (5136)] أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه، والحديث صححه الألباني لغيره. وهذا وغيره من الأحاديث التي تدل على أهمية ضبط اللسان.

آثار وأقوال في حفظ اللسان

ولله حكمة في خلق أعضاء الإنسان، ولهذا فإن الأذنين ليس عليهما غطاء، والعين عليها غطاء من أجل رد البصر وعض البصر، واللسان جعل الله له باباً من عظم وباباً من لحم، حتى لا يتساهل الإنسان في الكلام، فعلى اللسان بابان، وكذلك على البصر، وأما الأذن فلا غطاء لها ولا باب، فيدرك الإنسان بسمعه من العلم والوحي والموعظة والخير والعلم النافع يدرك أعظم ما ينفعه، وكذلك ما يراه من الخير يتعلم منه، وأما اللسان فإن له ضبطاً عظيماً واستعمالاً في الخير وذكراً لله عز وجل، ولو أن صاحب خيرٍ جلس إليك لكنت تتحرز منه، فكلامك يعرض على الله، أفلا تتحرز منه، ولو جلس الإنسان بحضرة عظيمٍ من العظماء وكبيرٍ من الكبراء، وأميرٍ من الأمراء، لجلس يحاسب نفسه كثيراً ويضبط لسانه ويتحرز ويتوقى فكيف بملك الملوك سبحانه وتعالى، وكان السلف رحمهم الله يحرسون غاية الحرص ألا يكون كلامهم إلا فيما يرضي الله، ويزينون ألفاظهم بميزان العدل والدقة قبل خروج الكلام، وهذا كان شأنهم مع أهلهم، قالت بنت الربيع بن خثيم الصغيرة لأبيها من العباد العلماء : يا أبتاه ، أذهبُ أَلْعَبُ ؟ قال : يا بني ، اذهبي قولي خيراً !!

وسأل المعافي بن عمران : ما ترى في الرجل يُقرض الشعر ويقوله -فهذا عمله - ؟ قال : هو عمرك فأفنه بما شئت !! يعني موعظة له .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا ويكتب عليه حتى أنينه، فمن ذلك كانوا يتواصون ويتعاهدون أنفسهم حتى لو مرض الواحد منهم ألا يخرج منه إلا ما يرضي ربه .

- وكان إبراهيم النخعي - رحمه الله - إذا ضرب عليه أحد الباب يريده وإبراهيم لا يريد الخروج إليه ويكره لقاءه، قال لجاريتته : قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس هاهنا كيلا يكون كذبا .

وقد دلت آثار السلف على التحرز من هذا اللسان وعدم إطلاقه إلا فيما ينفع الإنسان، حتى جعل الصمت رأس الحكمة، والرباط مرابطة هذا اللسان على الثغر، وعدم انطلاقه إلا فيما يرضي الله، وروى الخليل عن عبد الله بن المبارك قال: عَجِبْتُ مِنْ اتِّفَاقِ الْمُلُوكِ الْأَرْبَعَةِ كُلِّهِمْ عَلَى كَلِمَةٍ :

قَالَ كِسْرَى : إِذَا قُلْتُ نَدِمْتُ وَإِذَا لَمْ أَقُلْ لَمْ أَنْدَمْ .

وَقَالَ قَيْصَرُ : أَنَا عَلَى رَدِّ مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ .

وَقَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ : عَجِبْتُ لِمَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ إِنْ هِيَ رُفِعَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ ضَرَّتْهُ ، وَإِنْ هِيَ لَمْ تُرْفَعْ لَمْ تَنْفَعَهُ .

وَقَالَ مَلِكُ الصِّينِ : إِنْ تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مَلَكَتْنِي وَإِنْ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكَتْهَا .

ولهذا :

إذا تم عقل المرء قل كلامه وأيقن بحمق المرء إن كان مكشارا

. فيض القدير - (ج 4 / ص 316).

وإذا تم العقل نقص الكلام، ولم يكن من السيادة مثل ضبط اللسان، وها أنت ترى يا عبد الله خوفاً في الباطل وغيبية ونميمة، ومراءً ومجادلة، وسباً ولعناً، وفحشاً وبداءة، واستهزاءً وسخرية،

وطعناً في الأنساب وقدحاً في الأحساب، واستخفافاً بالخلق وتحداً بكل ما يسمع والشماتة بالمسلم، والسخرية والاحتقار، وشهادة الزور ، وانتهاز الضعفاء.

كم في المقابر من قتييل لسانه **كانت تخاف لقاءه الشجعان**
احفظ لسانك أيها الإنسان **لا يلدغك إنسه ثعبان**
وقد قال الله تعالى في كتابه : { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } (ق:18) .

فإذا أراد المسلم أن يتكلم فلا بد أن يتفكر، هل المصلحة أن يتكلم أو أن يصمت ؟

((مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) [رواه البخاري (10) ومسلم (40)] .

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَوْ يَبِينُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ)) [رواه البخاري (6477) ومسلم (2988)] .

ومعنى لا يتبين : أي لا يتدبر ولا يفكر في عاقبتها ومعانيها ومدلولاتها وآثارها.

يدل على جهل الفتى فضل نطقه **ونطق أخي العقل الرصين قليل**

وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بِالًا يَرْفَعُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بِالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)) [رواه البخاري (6478) ومسلم (2988)] أخرجه البخاري ومسلم.

وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ فَيَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ مِنْكَ، فَإِنِ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَّجَتْ اعْوَجَّجْنَا)) [رواه الترمذي (2407) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (351)] أخرجه الترمذي وحسنه الألباني.

عباد الله، إن ملاك الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام هذا اللسان، كف عليك هذا . عَنْ أَسْلَمَ أَنَّ عُمَرَ دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَهُوَ يَجِدُ لِسَانَهُ فَقَالَ عُمَرُ : مَهْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّ هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ . وصححه الألباني.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ما من شيء أحقّ بالسجن من اللسان).

وإذا كان في الإنسان عيوب كثيرة فإن حفظ اللسان يسترها، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه، يعني: لا فائدة له منه في الدنيا والآخرة، ولكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى محرم أو مكروه، والسلامة لا يعدلها شيء، وقال شيخ من قریش: قيل لبعض العلماء : : إنك تطيل الصمت!

فقال: إني رأيت لساني سبعا عقوراً أخاف أن أخلي عنه فيعقرني.

وقال الليث بن سعد : كتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب إلي بالعلم كله ، فكتب إليه:

(إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى لله خفيف الظهر من دماء الناس ، خميص البطن من أموالهم ، كاف اللسان عن أعراضهم ، لازماً لأمر جماعتهم فافعل) .

قال الحسن : ابن آدم ، وكل بك ملكان كريمان ، ريقك مدادهما، ولسانك قلمهما.

يكتبان عليك الأعمال.

وقال سفيان الثوري : (لأن أرمي رجلاً بسهم أحب إلي من أن أرميه بلساني).

قال سفيان لأصحابه مره وهم جلوس :

لو كان معكم من يرفع حديثكم إلى السلطان أكنتم تتكلمون بشيء؟ قلنا: لا ، قال: فإن معكم الملائكة ترفع الحديث إلى الله سبحانه وتعالى.

وقال أبو علي رحمه الله : لو كنتم تشترون الورق للحفظة لسكنتم عن كلام كثير .

يعني لو كان الله كلفكم أن تشتروا الورقة للكاتبين ليسجلوا أعمالكم عليها لسكنتم عن كثير من الكلام تلافياً للإنفاق والخسارة، والخير كله في السكوت والكلام والنظر، فطوبى لمن

كان سكوته فكرة، وكلامه حكمة، ونظرة عبدة، وكثرة الكلام في الضعفاء وعلى المسلم أن ينصح نسائه في هذا فإنهم منهم .

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَشْرَةِ بِلْسَانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَشْرَةِ الرَّجْلِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ وَعَثْرَتُهُ بِالرَّجْلِ تَبْرِي عَلَى مَهْلٍ

قَالَ بَعْضُ قُضَاةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَقَدْ عَزَلَهُ : لِمَ عَزَلْتَنِي ؟ فَقَالَ : بَلَّغْنِي أَنْ كَلَّمَكَ مَعَ
الْخَصْمَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ كَلَامِ الْخَصْمَيْنِ !!

فضائل اللسان

واللسان له فضائل، فمنها الصدق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }
(التوبة:119) .

ومنها القول الحسن : { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (الاسراء: من الآية53) .

وهذا القول الحسن يترك آثاراً حسنة، { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } (طه:44) .
{ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } (الفرقان: من الآية63) .

وخفض الصوت من الأدب لقول الله تعالى : { وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ } (لقمان: من الآية19) .

وهذه من وصايا لقمان الحكيم . وقد ثبت عن أنس رضي الله عنه موقوفاً أنه كان في عهد داؤود
عليه السلام .

وإذا قال قائل : إن الأدلة في الكلمة الطيبة كثيرة، وانها صدقة، ويحصل بالكلام من الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ العلم وذكر الله ما يكون، فهل الأفضل الكلام بهذا أما
الصمت، فلا شك أن استعمال اللسان فيما يرضي الله عز وجل أفضل وأحسن، فبالكلام يبين
الدين وبه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبه يعظم ربه ويسبحه، وبه يبين للناس ما نزل الله
على عباده، ويستعمل البيان وهو نعمة في خدمة دينه، { خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } (الرحمن:3-

وبه تؤدي العلوم وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد
فبكلمة طيبة)) [رواه البخاري (6023)] .

فأما إذا لم تترجح مصلحة الكلام ولم تظهر الطاعة والخير في النطق، فلا شك أن الصمت هو ستر
للجاهل وزينة للعالم ، وقلة الكلام مكرمة في الإسلام، واللسان سبع من أرسله أكله، وما من
شيء ثني إلا قصر إلا الكلام، فإنه كل ما ثني طال، والكلام في الخير كله أفضل من الصمت،
والصمت في الشر كله أفضل من الكلام، وأهل الصراط المستقيم، صراط الله عز وجل، ينظرون
في مرضاة الرب، فإن كان في الكلام تكلموا، وإن كان في السكوت سكتوا .

قال ابن القيم رحمه الله :

(وأما اللفظ فحفظها بأن لا يخرج لفظه ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة
في دينه ، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فإن لم يكن فيها ربح
أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بما كلمة هي أربح منها ؟ فلا يضيعها بهذه ،
وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب ، فاستدل عليه بحركة اللسان ؛ فإنه يطلعك على ما في
القلب ، شاء صاحبه أم أبي) . الجواب الكافي .

ولم يكن في عباداته ديننا الصمت المطلق، لقوله عليه الصلاة والسلام : ((ولا صُمت يوم إلى
الليل)) [رواه أبو داود (2873) ، وصححه الألباني في الجامع الصغير (7609)] رواه أبو داود ، وصححه الألباني .

وقد كان في عبادات بني إسرائيل من قبلنا نذر صمت يوم كامل، {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا -
يعني صمتاً - فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا* فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا
أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ } (مريم: من الآية: 26-28) .

وأما في هذا الدين فإنه لا يشرع التعبد بالصمت في اليوم كله، وأن يتكلف الإنسان فيستعمل لغة
الإشارة وله لسان، ولكن من الدين والإسلام قلة الكلام، وعن قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ : دَخَلَ
أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا : زَيْنَبُ فَرَأَاهَا لَا تَكَلِّمُ . فَقَالَ : مَا لَهَا لَا تَكَلِّمُ ؟

قَالُوا: حَجَّتْ مُصْمِتَةً ! -يعني نذرت أن تحج صامتة-

فَقَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ ، هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ . [رواه البخاري (3834)] أخرجه البخاري .

ومن الصمت ما يكون واجباً، كالصمت للخطبتين، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْصِتْ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَعْنَتَ)) [رواه البخاري (934) ومسلم (851)] .
ولذلك يجب الصمت لهما .

عباد الله، من عرف الفقه في الدين عرف بماذا يتكلم، ومتى يتكلم، وكيف يتكلم، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الفقه في الدين، واتباع سنة سيد المرسلين، اللهم إنا نسألك حفظ ألسنتنا مما لا يرضيك، وقول الخير يا رب العالمين، اللهم طهر ألسنتنا من الكذب، وقلوبنا من الرياء والنفاق، اللهم إنا نسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .